

دلالات العقاب والثواب في الآخرة في النصوص المقدسة (العهد القديم، العهد الجديد، القرآن)

- الجزء الثاني -

سمية محفوطي
باحثة تونسية



قسم الدراسات الدينية

إنّ المتأمل في ثنائية العقاب والثواب في النصوص المقدّسة للأديان الكتابية، يتبيّن له وجود صنفين: صنف دنيوي وصنف أخروي؛ ففي ما يتعلق بالصنف الأول نشير إلى أنّ الله - باستثناء النصوص الإنجيلية - ينزل عقابه بمكذّبي الأنبياء ومضطهديهم، وفي ما يتصل بهذه المسألة نهضت عناصر الطبيعة وقواها وسائر المخلوقات المرئية وغير المرئية بأدوار بالغة الأهميّة، فلم تكن وسيلة عقاب إلهي فحسب، وإنّما كانت أيضا طهارة للأرض من فساد الإنسان وتجديدا للخلق وفق أسس جديدة حيناً، وحيناً آخر كانت موعظة يصيب القارئ حكمتها، فلا يضل الطريق القويم مثلما ضل من قبله. أمّا الصنف الثاني، فهو عقاب غيبي لم يتحقّق زمن الوحي والدعوة، الغاية منه ترهيب قلوب المكذّبين والشاكين. أمّا الثواب (الجنّة)، فكانت الغاية من إبرازه ترغيب العباد في الإيمان من جهة، وتوطيد دعائمه في قلوب المؤمنين.

إنّ التجارب النبوية في النصوص المقدّسة للأديان الكتابية على اختلافها اشتركت في الدعوة إلى تجنّب مسالك الشيطان، وضرورة اتباع الأنبياء، باعتبارهم الممثلين الصادقين لله. وفي هذا السياق عمدت النصوص المقدسة إلى اعتبار الزمن الدنيوي مرحلة تمهّد للزمن الأخروي، فالأول زائل لا يدوم، والثاني خالد لا ينقضي، وإذا بالفوز مقترن بزمن غير الزمن الدنيوي، مداره عالم الغيب.

بيد أنّه من المفيد في هذا المجال الإشارة إلى أنّ النصوص المقدّسة الثلاثة (العهد القديم، العهد الجديد، القرآن) لم تتخذ في معالجتها لهذا العالم الغيبي الأسلوب نفسه، ولم تهدف إلى تحقيق غايات مشتركة، ويعود الأمر في ذلك إلى اختلاف الأسباب الدافعة إلى نشأة هذا العالم الغيبي في هذا النص أو في ذلك النص.

وفي هذا البحث، نسعى إلى تبيّن أهم وجوه الاختلاف القائمة بين النصوص المقدّسة في ما يتصل بهذه المسألة من جهة، ومن جهة أخرى نقف عند أهم النتائج المترتبة على اختلافها (النصوص المقدّسة)، وهو أمر يقتضي منّا تحديد المرجعيات المشكّلة لكل رؤية دينية، وقصد تحقيق هذه المقاصد نوزع المقال على عناصر ثلاثة: نخصص الأول للنظر في ماهية الثواب والعقاب الأخروي في العهد القديم، وفي هذا العنصر نعالج دور الأحداث التاريخية في إنشاء المقولات الدينية اليهودية. أمّا في الثاني، فنستطرق فيه إلى منزلة البعث ثواباً وعقاباً في النصوص الإنجيليّة، وذلك بالوقوف عند أهمّ روافد المواقف الإنجيليّة من البعث. أمّا العنصر الثالث، ففيه نعالج الموقف القرآني من البعث، وذلك بالنظر في أهمّ الدلالات المتعلقة بمكوّنات الجنّة والجحيم ومصائر ساكني كل دار منهما، وفي ثنايا العنصر نعرّج على الدور المهمّ الذي نهضت به الثقافة العربية والبيئة الجاهلية والموروث الفكري والعقائدي في تأنيث الجنّة والجحيم في النص القرآني.

1. الثواب والعقاب في العهد القديم

يعدّ الحديث عن الآخرة في "العهد القديم" سمة مميزة لفترات متأخرة من نشأة الجماعة اليهودية، وذلك بالنظر إلى الفضاء الثقافي الذي تشكّلت في أحضانه المعتقدات اليهودية، إذ اختلف دارسو اليهودية في تحديد دلالات التركيب الاسمي بالإضافة "يوم الرب" الذي شاع في أسفار الأنبياء، فلئن ذهب أغلبهم إلى اعتباره دالا على يوم دنيوي، فإنّ رهطا من الباحثين رأى فيه دلالة على يوم أخروي يقع خارج التاريخ. ومأتى هذا الاختلاف أنّ النصوص التوراتية لم تحدثنا عن جنة سماوية أو مجهولة في عالم غيبي تكون مصيرا للمؤمنين، وفي ما يتعلق بهذه المسألة نلاحظ أنّ سفر التكوين اعتبر الجنة فضاء أرضيا بامتياز،¹ وفي ما يتعلق بهذه المسألة نرجح أنّ يكون استخدام المصطلح الفارسي فردوس (Paradis) ومصطلح الجنة بوصفهما من المترادفات عائد إلى أمرين: أولهما أنّ مفهوم السماء لم يكن واضح المعالم في العهد القديم، ولا سيما في قصة الخلق، فجنة عدن أرضية- أغلب الظنّ.² أمّا الأمر الثاني، فيتمثل في كون مقولة الفردوس هي مقولة دخيلة على الفكر الديني اليهودي.

لقد اتخذت الجنة في مواضع عديدة من "العهد القديم" دلالات متباعدة اختلفت باختلاف الأزمنة ووضع بني إسرائيل في بلاد كنعان؛ ففي أسفار ما قبل السبي كانت الجنة دالة على معان عديدة منها:

■ الإحالة على فضاء أرضي،³ هو بمنزلة حديقة مترامية الأطراف وكثيفة الأشجار تغلب عليها الخضرة،⁴ فهي "البساتين [ال-] معدّة للانشراح واللذات ومنها جنّات الملك سليمان [...] وفيها سواقي وينايع".⁵

■ الإحالة على الفضاء الذي احتضن خلق آدم، وقد وُسم في سفر التكوين بـ"جنة عدن"، وهي الفضاء الذي عصى فيه آدم أوامر الربّ الإله.

1- نشير في ما يتعلق بهذه المسألة إلى أنّ سفر التكوين - وسائر أسفار ما قبل السبي- تستخدم مصطلح الجنة الذي عوّض - في الفترة التي تلت العودة من السبي- بالفردوس.

2- نقرأ في معجم اللاهوت الكتابي ص 603 "جنة الله: تتمثل ديانات الشرق الأوسط حياة الآلهة باقتباس صور من حياة عظماء هذه الدنيا، فتعيش الآلهة بتنعّم في قصور بها حدائق يجري فيها ماء الحياة".

3- العهد القديم، سفر الجامعة 5/2

4- إنّ اعتبار الخضرة سمة من سمات الجنة جامع مشترك بين الثقافات والأديان، وذلك بالنظر إلى ما يحتمله اللون الأخضر من إحالة على الطمأنينة والشعور بالراحة. راجع الجمل (بسام): ليلة القدر في المتخيل الإسلامي، مؤسسة القدموس الثقافية، ط 1، دمشق سورية، 2007، ص 133 على أنّ الباحث قد بيّن في الهامش الخامس من الصفحة نفسها "ضرورة تنسيب الدلالات الرمزية للون الأخضر (ولغيره من الألوان). فإنّ ما غلب على رموزه من دلالات إيجابية في العديد من الثقافات لا يحجب عنّا بعض الدلالات السلبية المستفادة من رمزية هذا اللون. من ذلك أنّ المجانيين بفرنسا إبان العصر الوسيط الأوربي كانوا يرتدون ثيابا خضرا، لأنّه يعتقد بأنّ قوى شيطانية حلّت بهم وسكنت فيهم".

5- عبد الملك (بطرس): قاموس الكتاب المقدس، (سبق ذكره)، ص ص 275-276

إنّ هاتين الدالتين تحوّلان الأرض من مجرد فضاء يحتضن هذا الإنسان المشرّد المطرود إلى جنّة جديدة تقوم بدلا من جنّته المفقودة "جنّة عدن". وفي هذا السياق، نشير إلى أنّ اليهود وصفوا "أرض كنعان" بصفات تتقاطع مع صفات جنّة عدن، فإذا بأرض كنعان تفيض بالخيرات من لبن وعسل...⁶ فلم تعد "أرض كنعان" "أرض الميعاد" فحسب، وإنّما أضحت أيضا الأرض المقدّسة، فلقد حلّ الرّب الإله بين شعبه المختار، فعّمده وعمّد الأرض التي حلّ فيها الشعب،⁷ وهو ما يعني بالضرورة أنّ حلوله بينهم جعلهم لا يرون في الموت انتقالا من عالم إلى آخر، بل كان انتقالا من الحركة والفعل إلى الجمود والسكون.⁸

فلئن كان "الموت يعني الذهاب إلى أرض الموتى التي لا عودة منها دون أن يكون هناك ثواب أو عقاب"،⁹ فإنّه بالأساس انتقال من الحياة إلى العدم،¹⁰ ذلك أنّ النصوص التوراتيّة-لا سيما الأولى- صوّرت "إيل [...] إله- [...] ل- [الأرض]".¹¹

ولا يفوتنا في هذا السياق، الإشارة إلى أنّنا نجد عند شعوب الشرق الأدنى القديم تصورا مخالفا للتصوّر اليهودي، إذ رأت جملة من شعوب الشرق (مصر، العراق،..) في الموت انتقالا من حياة الدّنيا إلى حياة أخرى تقع تحت الأرض؛ فملوك بابل كانوا يُنقلون إلى الموت مصحوبين بجميع مقومات الحياة من مآكل وألبسة...¹²

وهو أمر يقودنا بالضرورة إلى القول، إنّ مدوّني سفر التكوين وسائر أسفار التّوراة لم يشكّلوا رؤية واضحة للعالم الآخرويّ قبل مرحلة السبي L'eschatologie؛ ففي أسفار ما قبل تلك المرحلة كان الموت يتمثّل في انتقال الإنسان إلى "شبول" بما هو حفرة في الأرض لا حياة فيها ولا حركة.

ويبدو أنّ الحديث عن "الشبول" كان محاولة لفهم الحدث البيولوجيّ المتمثّل في انقطاع الحركة وانتفاء الرّوح وجمود الجسد وتحوّله إلى كتلة غير فاعلة أو متفاعلة أو منفعة مع العوالم المحيطة بها. فهي لم تر في ذلك الفضاء جحيما أو ملكوتا للشيطان أو العذاب، بل هو حيز للعدم المحض.¹³

6- العهد القديم: سفر الخروج 17/3 وسفر التثنية 3/6

7- نشير إلى أنّ مدينة القدس أصبحت مدينة مقدّسة لدى اليهود عندما نقل إليها داود تابوت الرّب.

8- نجد في مواضع عديدة من العهد القديم حديثا غامضا عن عالم الأموات، ففي المزمور 88 والمزمور 115 وسفر إشعياء 18/38 يكون عالم الأموات خاليا من كلّ فعل ساكنا لا حركة فيه.

9- المسيرى (عبد الوهاب): موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية "الموجزة"، (سبق ذكره)، ج2، ص 99

10- رأت بعض النصوص من العهد القديم أنّ عالم الموت عالم لا فعل فيه للإنسان (المزمور 88/115/94).

11- جعيط (هشام): في السيرة النبوية-الجزء الأول- الوحي والقرآن والنبوة، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط 1، بيروت لبنان، 1999، ص 114

12- السواح (فراس): مغامرة العقل الأولى دراسة في الأسطورة: سوريا أرض الرّافدين، (سبق ذكره)، ص 294

13- تقع شبول إما تحت الأرض أو تحت الماء أو تحت قاعدة الجبال [...] وتعتبر شبول مكانا محايدا أي أنّه لم يكن مكانا للثواب والعقاب يتساوى فيه الملوك والعامّة والأثرياء والفقراء والسادة والعبيد [...] بل يكاد يكون مجرد مكان للدفن [...] إنّ حياة ما بعد الموت، إنّ وجدت، فليست إلا صورة شاحبة

إنّ هذا الطرح كان متناسقا مع سائر المقولات الدينيّة الأخرى، وأهم هذه المقولات حلول الرّب الإله بين شعبه، بيد أنّ الفكر الديني اليهودي وجد نفسه في فترات لاحقة مضطرا إلى إعادة بناء تلك المطارحات، لاسيما في القرون الخمسة الممتدة من القرن السادس قبل الميلاد إلى القرن الأوّل قبل الميلاد.

لقد حاولت اليهوديّة إلى حدود تلك الفترة جعل العقاب والثواب أمرين متعلّقين بالدنيا، - إنّ اعتبار الثواب والعقاب من شؤون الدنيا يدخل في دائرة تفسير اليهود للأحداث التاريخيّة التي عاشوها من سبي وهزائم عسكرية...، وهو تصور حافظت عليه أغلب الفرق اليهودية الحلولية، ولعل أوضح هذه المواقف موقف فرقة الصّدوقيين الذين نفوا بوضوح مقولة البعث -¹⁴ فالحروب والهزائم والسبي¹⁵ ... هي مظاهر سخط إيل وغضبه من شعبه. أمّا في فترة السبي، فغفران الرّب الإله خطايا بني إسرائيل يتمثّل في إعادة شعبه إلى أورشليم، وبهذا المعنى فهم اليهود مرسوم قورش الأخميني المعروف بقورش الأكبر (ت 530 ق م) الصادر في 537 ق م، فهو عندهم الجزاء الإلهي الذي كافأ به الرّب الإله توبة الشعب وصدقه.¹⁶

ومن مظاهر ذلك أنّ العودة إلى المدينة المقدّسة أورشليم كانت مصحوبة بنهضة روحيّة ودينيّة تجلّت في تغييرات عديدة شملت الكثير من المجالات، بما في ذلك طقوس العبادة (الصلاة، القران، ...) . على أنّ انكسار أحلام الجماعة في عديد من المواضع وفي فترات متباينة، دفعت بالفكر الديني إلى ابتكار مقولة الجنة اقتداء بالفردوس الفارسي، وفي هذا السياق بات القول إنّ " للجنة المستعادة من حقائق الآخرة، لم يعرف عنها شعب الله، في اختباره التاريخي إلاّ ظللا"¹⁷ فإذا بالجنة مقابل ماديّ لجهنّم يتمّ فيها الخلاص النهائي من الأخطار، فلا حروب ولا أعداء،¹⁸ لقد أضحت الجنة التّعويض المادي لما أصاب الجماعة من خيبات.

لقد كان همّ الجماعة البحث عن الفضاء الآمن الذي يطيب فيه العيش دون خوف من عدو يتربص بها؛ فالحروب والهزائم والسبي عُدّت لزمان طويل مظاهر سخط إيل وغضبه من شعبه. من ذلك أنّ أنبياء فترة ما

لهذه الحياة تتسم بنوع من نقصان الحيوية وحين يموت المرء تذهب [كذا = يذهب] روحه وجسده إلى أرض الموتى" المسيرى (عبدالوهاب): موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- الموسوعة الموجزة -، (سبق ذكره)، ج 2، ص 103

14- حسن أحمد(محمّد خليفة): تاريخ الديانة اليهودية، دار قبا للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، القاهرة مصر، 1998، ص 225

15- الملاحظ أنّ النصوص اليهوديّة تتحدّث في أغلب الأحيان عن السبي Exil وخراب القدس وتهديم هيكلها،(راجع مظاهر تأثير السبيين في حياة الجماعة اليهودية في معجم اللاهوت الكتابي، مادة "السبي"، ص 409). ويبدو أنّ هذه المسألة تحتاج إلى إعادة نظر، فما من وثيقة تاريخيّة تؤكد خراب القدس وتهديمها على نحو ما تقدّمه النصوص اليهوديّة. أضف إلى ذلك أنّ السبي على ما يبدو لم يكن مسألة تتعلّق بالشعب اليهوديّ دون غيره من شعوب المنطقة آنذاك..

16- إنّ تعاطف قورش مع اليهود يطرح تساؤلات عديدة حول دوافع اتخاذ هذا الموقف، هل مرد هذا التعاطف الشّعور بالمعاناة التي عاشها اليهود في بابل أم أنّ موقفه كان مجازاة عن دور نهض به اليهود في إسقاط بابل؟

17- نجيب (أطنيسوس): معجم اللاهوت الكتابي، دار المشرق، ط 3، بيروت لبنان، 1991، ص 603

18- صوّرت الجنة باعتبارها أرضا للسلام بين البشر والطبيعة والحيوانات (العهد القديم: سفر إشعياء 4/2 و 9-6/11 وسفر هوشع 20/2)

قبل السبي¹⁹ نادوا بالتوبة التي من شأنها أن تمنح شعب إسرائيل المغفرة التي تتجلى في الأمن والاستقرار، فإذا بالعقاب والثواب من الأمور الدنيوية المحضة.

وفي هذا المضممار نشير إلى أن "العهد القديم" لم يقدم تصوّراً واضحاً لعالم الأموات، ذلك أنّ منشأ مقولة البعث اليهودية تاريخي سياسي؛ فالجماعة اليهودية لم تكن بمعزل عن الصراعات الإقليمية والدولية التي عرفتها منطقة "الشرق الأدنى القديم"، وقد كان للسبي الآشوري (722 ق م - 721 ق م)²⁰ والسبي البابلي (عام 587 ق م) الأثر البالغ في الفكر الديني اليهودي.²¹

وقد حاول أنبياء بني إسرائيل تقديم تفسيرات لاهوتية لهذه الأحداث، وعيا منهم بما تثيره هذه الأحداث من ظلال شكّ حول مقولات عديدة عدّت من ركائز المنظومة الدينية اليهودية، مثل مقولة الاختيار ومقولة العهد ومقولة حلول الرب الإله بين شعبه ومساندته لهم.²² ومن أبرز التعليقات التي قُدمت نذكر:

▪ خيانة اليهود للعهد الإلهي وتكرهم للرب الإله بعصيان أو امره وخرق نواهيته.

▪ فساد أخلاق اليهود مع الرب الإله.²³

▪ عبادتهم آلهة غيره مثل بعل وغيره من آلهة الشعوب المجاورة.²⁴

لقد اصطدمت هذه النزعة الدينية الإصلاحية بالوقائع السياسية؛ فكان اليهود مدعويين إلى إعادة النظر في مقولاتهم اللاهوتية، وفي هذا المجال ابتكروا مفاهيم جديدة أهمها مقولة "يوم الرب" *Jour du Seigneur* الذي أصبح يوماً شاملاً لجميع الأمم،²⁵ وهو يوم مرعب للأعداء شديد الوطء على نفوسهم، ففيه يهلك الرب

19- أنبياء ما قبل السبي هم: يونان و عاموس وهوشع وإشعيا وميخا وناحوم وصفنيا وإرميا وحقوق، أما نبياً السبي فهما حزقيال ودانيال اللذان بشرّا بالخلاص دون شروط أو قيود. أما أنبياء ما بعد السبي فهم حجي وزكريا وعوبديا ونحميا وعزرا وملاخي ويونيل، وقد ركزوا على تنظيم الحياة الدينية والشعائرية.

20- نشير في هذا السياق إلى أنّ السبي بما هو استعباد للقوم المهزومين ونفيهم إلى أرض أخرى، قد كانت له غاية اقتصادية تتمثل في استغلال المسيبيين، بالإضافة إلى إضعاف النفس القومي لديهم.

21- بعد العودة من السبي البابلي "ظهرت فكرة الثواب والعقاب الفرديين، بحيث أصبحت شيول المكان الذي ينتظر فيه الموتى يوم الحساب حين يُبعثون ليحاسبوا. ولذا قُسمت شيول إلى أقسام مختلفة" المسيري(عبدالوهاب): موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية- الموسوعة الموجزة -، (سبق ذكره)، ج 2، ص 103

22- نذكر بأنّ الرب الإله كان عند اليهود إلهاً محارباً يقف مع شعبه (العهد القديم، سفر الخروج 14/14 و 3/15)، وهو إلى جانب ذلك يقيم بين شعبه المختار من خلال تابوته، فحضور تابوت الرب في تاريخ بني إسرائيل يمثل حضور الإله في تاريخ شعبه وإعلانه عن تدخله المباشر في التاريخ لحماية شعبه، وكلّ اعتداء على تابوت الرب هو اعتداء على الرب ذاته، ففي حادثة استيلاء الفلسطينيين على تابوت الرب ونقله إلى أشدود ووضعه إلى جوار إلههم داجون نجد الرب الإله يتولى بنفسه معاقبة الفلسطينيين وإلههم (العهد القديم، سفر صموئيل الأول 1/5-12).

23- العهد القديم، سفر عاموس 18/5-27

24- العهد القديم، الإصحاح الثاني من سفر القضاة وما بعده، لاسيما ما تعلق بقصة جدعون (ت1150ق م).

25- العهد القديم: سفر صفنيا 4/2 و 15-9/3 و 18-9/3 وسفر إشعيا 4/1-2

الإله أعداءه، وفي المقابل يكون يوم نور وفرح لشعب الرب،²⁶ إذ تنجو الجماعة الصالحة ويجدد معها الرب الإله العهد.²⁷

وما يسترعي الانتباه في التصور اليهودي لـ"يوم الرب" أنّ أغلب الأسفار ظلّت تصوّره بوصفه يوماً دنيوياً؛ فهو يوم يقع في آخر الزمن.²⁸ فرغم أنّ عاموس وهوشع قد جدّدا الطرح الديني اليهودي في ما يتعلّق بالفكر الأخروي، فإنّهما لم يرتقيا بتصوراتهما إلى درجة يمكن معها اعتبار "آخر الأيام"²⁹ يوماً يقع خارج الزمن الدنيوي؛ إذ تظل "مدينة داود" [...] نسخة ناقصة من [أورشليم السماوية التي] سـ"ينزلها [الربّ الإله] على الأرض".³⁰

ما من شك أنّ الديانة اليهودية كانت ديانة تاريخية بشكل أو بآخر، إذ تعهدت مقولاتها اللاهوتية بالمراجعة والتجدد وفق متطلبات الظرف التاريخي وملابساته، ومن علامات ذلك أنّ أنبياءها قد عمدوا في القرن الأوّل قبل الميلاد إلى إعادة صياغة مقولة "يوم الربّ" بطريقة مخالفة لما ساد في القرون الأربعة السابقة. وقد مرّ الفكر الديني اليهودي بمرحلتين بارزتين في ما يتعلّق بالآخرة، وهاتان المرحلتان تتوزّعان على النحو الآتي:

المرحلة الأولى: امتدت من القرن السادس إلى منتصف القرن الثاني، وفي هذه المرحلة نتبيّن بعض الإشارات التي من شأنها أن تؤدّي إلى القول بوجود عالم آخر خارج حدود الزمن الدنيوي.

المرحلة الثانية: بدأت من النصف الثاني من القرن الثاني والقرن الأوّل قبل الميلاد، وفي هذه المرحلة نجد حديثاً واضحاً عن عالم الآخرة بوصفه عالماً يقع خارج حدود الزمن الدنيوي،³¹ وأية ذلك أنّنا أصبحنا مع الأسفار الرؤيوية،³² إزاء مضمون جديد لمفهوم الجزاء Rétribution، وذلك بانتقالنا من الجزاء الدنيوي إلى الجزاء الأخروي، فأصبح "شيول" المكان الذي ينتظر فيه الموتى يوم الحساب، حين يبعثون ليُحاسبوا³³ بعد

26- العهد القديم: سفر إشعياء 4/34 – 8 وسفر يونس 11/2 وسفر عاموس 5/18-20

27- العهد القديم: سفر إشعياء 8/34 وسفر إرميا 10/46 وسفر حزقيال 34/36 وسفر هوشع 14/2

28- راجع كذلك G.P. Maisonnette et Larose, Paris, Le Talmud de Jérusalem traduction par Moïse Schwab, édition, France, 1981, vol2 ; ch 1; p278.

29 تشير إلى تقاطع جملة من التسميات في الكتب اللاهوتية مثل: آخر الأيام/اليوم الآخر ويوم الربّ ويوم الحساب...، وجميع هذه التسميات متطابقة في مستوى الدلالة.

30- راجع نجيب أنطونيوس في معجم اللاهوت الكتابي، مادة (تابوت العهد)، (سبق ذكره)، ص 126

31- يعدّ سفر دانيال أكثر أسفار العهد القديم وضوحاً ودقّة في ما يتعلّق بمسائل العالم الأخروي، ففيه تكتمل تصورات الخطاب الديني اليهودي الأخروي، إذ نعتز في أصحاباته على حديث واضح عن البعث وعن قيامة الأموات وتصنيفهم، لاسيما في الأصحاح الثاني عشر من السفر.

32- نعت يُطلق على أسفار أنبياء (من ق 6 م إلى ق 1 م)، وعماد هذه الأسفار النزعة العرفانية الرؤيوية، وأبرز هذه الأسفار سفر إرميا وسفر حزقيال.

33- المسيرى (عبدالوهاب): موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية-الموسوعة الموجزة-، (سبق ذكره)، ج 2، ص 103

أنّ كان فضاء للعدم. وبات من الواضح أنّ حياة الحقّ تقع في زمن أخروي،³⁴ وهو ما تطلّب القول بوجود فضاء خارج الفضاء الدنيوي؛ أي الأرض.³⁵

وما يميّز هذه الحياة الجديدة أنّها مسبوقة بحساب عسير يتمّ من خلاله تصنيف البشر إلى صنفين، مأل الصّنف الأوّل الجنّة، ومصير الثاني جهنّم، وهو إلى جانب ذلك يوم خلاص بالنسبة إلى شعبه المختار، فالنظر في خصائص ذلك اليوم وما ينجزه الرب الإله فيه يجعلنا نقرّ بأنّ أهمّ سمة تميّز ذلك اليوم هي الانتقام للجماعة من مضطهديها؛ ففي ذلك اليوم يصرح الرب الإله بانتصاره لجماعة بني إسرائيل.

2. الثواب والعقاب في الآخرة في النصوص الإنجيليّة

جعلت النصوص الإنجيلية المسيح الديان والشفيع الأخروي من جهة، ومن جهة أخرى ركّز الخطاب الإنجيلي على وصف أهل الملكوت السماوي. وفي هذا المجال، نشير إلى أنّ النصوص الإنجيلية قد اهتمّت بالرحمة الإلهية في أكثر من موضع من المواضع المتعلقة بيوم الحساب، ممّا يجعلها (الرحمة) معنى رئيسا يوازي فكرة العقاب في المستوى الدلالي، ويتجلّى ذلك بوضوح في كثرة المواطن التي يحضر فيها اسم "ملكوت الرب" مقارنة باسم الجحيم، وذلك على النحو الذي نبيّن في الثابت الآتي:

المصطلح / الإنجيل	متّى	لوقا	مرقس	يوحنا	المجموع
الجحيم	1	0	0	0	1
جهنّم	8	1	3	0	12
ملكوت الرب/ ملكوت السماوات	54	42	16	2	114

جدول بأهمّ المصطلحات المتّصلة بالثواب والعقاب في العالم الأخروي في النصوص الإنجيليّة

إنّ القول إنّ اليهود اعتبروا يوم الرب هو يوم أخروي لم يكن تصوّراً منتشراً بين جميع اليهود؛ فالصديقون والأسينيون – عند البعض جزء من الفريسيين - نفوا بعث الأموات في عالم آخر.³⁶ ويبدو أنّ أغلب اليهود كانوا على تصوّر الصديقين، من ذلك أنّ اليهود الذين عاصروا يسوع لم يروا فيه غير مخلص (الماشخ) من الاستعمار الروماني.³⁷

34- Voir Poupard (Paul): Dictionnaire des religions, P U F, 2^{ed}, Paris, France, 1985, Art Shéol, p1572.

35- هناك ينزل كل الأحياء (العهد القديم: سفر إشعياء 18/38 وحزقيال 14/31) ولن يصعدوا منها - أبداً (العهد القديم، المزمور 10/88 وسفر أيوب 9/7).

36- حسن أحمد (محمّد خليفة): تاريخ الديانة اليهوديّة، دار قبا للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1، (دم)، 1998، ص 225

37- المشرقي (أحمد): النبوة في الأديان الكتابية، ص 70

ونحن إذا ما تأملنا النصوص الإنجيلية ألقيناها تبيّن القيم والمفاهيم التي نادى بها المسيح، ودعا الناس إلى الإيمان بها (المحبة، الأخوة،...). وفي المقابل دعت إلى ترك كل القيم الأخلاقية المذمومة التي يعدّ شكلا من أشكال الخطايا التي يمثل الجسد مصدرها الرئيس. وفي ظل هذه الرؤية لم يعدّ ثمة "مكان [للجسد] في الحياة الآخرة".³⁸

بيد أنّ ما يلفت الانتباه في نصوص "العهد الجديد" اختلافها في مستوى الدلالات المتعلقة بالبعث، باختلاف الأحوال؛ ففي المواضيع المتعلقة بالمسيح كان البعث مخصوصا ببني إسرائيل الذين نعتوا بالخراف الضالة.³⁹ زد على ذلك أنّ الآيات الإنجيلية لم تبيّن مصائر الأمم الأخرى. أمّا الصنف الثاني، فإنّه تعلق بمواقف وآراء التلاميذ والرسول - لا سيما الرسول بولس والرسول بطرس-، ففي الرؤيا 15/20 نقرأ: "كل من لم يُوجد اسمه مكتوبا في سجلّ الحياة طُرح في بحيرة النار"، وفي المقابل كانت الجنّة مصيرا للمؤمنين برسالة المسيح - بصرف النظر عن أصولهم الإثنية-، وهي فضاء سماوي،⁴⁰ وفي الرسالة الأولى إلى مؤمني كورنثوس 12/15-22 كانت مصائر البشر تحدّد بعد قيامتهم تمهيدا لصعودهم إلى السماء.

إنّ العهد الجديد قدّم - في تقديرنا- تصوّرين مختلفين؛ ففي الأنجيل كانت أقوال المسيح دالة على أنّ البعث متعلق باليهود دون غيرهم. أمّا رسائل الرسل والتلاميذ، فكان البعث شاملا للبشر جميعا.

إنّ الموقف الجديد الذي أرسى دعائمه التلاميذ، بدأ يتشكّل على يد بولس وبطرس، وذلك في سياق بحث التلاميذ عن فضاء جغرافي جديد من جهة، ومن جهة أخرى كان للتلاميذ دور مهم في تحديد دلالات البعث، فلئن لم يشر المسيح بوضوح إلى زمن البعث وفضاء الجزاء والعقاب.⁴¹ فإنّ التلاميذ أسسوا رؤية واضحة للبعث. وفي ما يتصل بهذه المسألة نشير إلى أنّ مواقف التلاميذ كانت محاولة منهم لمنح نهاية المسيح مهزوما على الصليب دلالة أخرى تحوّل بمقتضاها من مخلص دنيوي إلى مخلص أخروي، وبات الجسد المصلوب تعبيرا رمزيا عن ضرورة التخلص من الناسوت كي تتمّ ملاقة المسيح في السماوات، وفي هذا السياق سعى التلاميذ إلى التخلص من سلطة الجسد، فلم يعد المسيح نبيا من أنبياء بني إسرائيل (الانتماء العرقي/الانتماء

38- بوحديبة (عبد الوهاب)، ص 105

39- العهد الجديد، إنجيل متى 24/15، إنجيل مرقس 24/7-30

40- العهد الجديد، الرسالة الثانية إلى مؤمني كورنثوس 1/5

41- العهد الجديد، إنجيل لوقا، الأصحاح الثامن.

الجسدي)، وإنما أصبح إليها متجسداً في قيامته وعوده إلى السماء دلالة واضحة على وجود عالم أخروي، هو العالم الحقيقي.⁴² أما الأرض، فهي بهذا المعنى الجحيم.

وقد بنى التلاميذ هذا التصور الجديد على أنقاض تصورات يهودية تقوم على مقابلة بين القديم والجديد؛ ففي سفر إشعياء 17/65 خاطب الرب الإله بني إسرائيل قائلاً: "إنني ها أنا أخلق سماوات جديدة وأرضاً جديدة"، على أن للسماوات الجديدة والأرض الجديدة في تصور رسل المسيح دلالات مخالفة للتصور اليهودي، فثلثت السماء الجديدة والأرض الجديدة في سفر إشعياء دالة على تجديد الرب الإله عهده لبني إسرائيل، فإنّ للسماوات الجديدة والأرض الجديدة في تصور رسل المسيح دلالة مخصوصة متعلقة بعالم غير العالم الأرضي.

إنّ التصور الإنجيلي للبعث يؤكد أنّ ماهية الجنّة وجهنّم هي في الأصل موقف من الواقع المعيش الذي تكسرت فيه أحلام اليهود في الخلاص من الاستعمار الروماني، وهو ما أدى بالتلاميذ إلى بناء رؤية متكاملة يكون فيها المسيح إليها متجسداً بصلبه انفصل اللاهوت عن الناسوت، فظل الجسد في الأرض في حين غادر اللاهوت إلى السماء، وهو تصور ترتّب عليه القول إنّ الخلاص الحقيقي يتمثّل في الالتحاق بالمسيح، وفي النجاة من "بحيرة النار" التي "يطرح [فيها] إبليس الذي [كذا] يضلّهم [...] حيث الوحش والنبى الدجال. هناك سوف يعذبون نهاراً وليلاً إلى أبد الأبدين".⁴³

إنّ اعتبار الأنبياء الدجالين (السحرة، العرافون،..) سگانا لجهنّم هو شكل من أشكال التعبير عما واجهه رسل المسيح من صعوبات؛ فالسحرة كانوا أكثر الناس معاداة للتلاميذ،⁴⁴ وهو ما تجلّى في التحديات التي وضعوها أمام الرسل، ففي "أعمال الرسل" ذكر لمواجهات ثلاث دارت بين بعض الرسل والسحرة، فقد واجه فيلبس وبطرس ويوحنا في السامرة الساحر سيمون،⁴⁵ وفي قبرص واجه برنابا وبولس الساحر باريشوع،⁴⁶ وفي أفسس تحدّى أبناء سكاوا الرسول بولس وسعوا إلى تعجيزه تكذيباً له.⁴⁷

إنّ المواجهات التي خاضها التلاميذ المبشرون بالمسيح قد طالت مدناً مختلفة بعضها يقع في مملكة إسرائيل (السامرة،..)، وبعضها الآخر يقع وراء البحار (قبرص، روما،...). ويعود ذلك إلى سعي التلاميذ إلى

42- العهد الجديد: رسالة بطرس الثانية 13/3 والرؤيا 12/3 و 9-1/21

43- العهد الجديد، الرؤيا 10/20

44- للمزيد من التوسع في هذه المسألة راجع إدريس (محمّد): النبوة والنظم المعرفية في النصوص المقدسة (الكتاب المقدس نموذجاً) قراءة في سلطة الواقع السياسي والاجتماعي، مجلة آداب القيروان، عدد، 10/9 حد، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان: 2012-2013، ص ص 47-107

45- العهد الجديد، أعمال الرسل 4/8-25

46- العهد الجديد، أعمال الرسل 12/4-13

47- العهد الجديد، أعمال الرسل 13/19-20

نشر كلمة المسيح في أرجاء عديدة من العالم، وفي ذلك مخالفة لموقف المسيح الذي عدّ نفسه نبيا خاصا بالخراف الضالة، وفي ما يتصل بهذه المسألة نشير إلى أنّ المواقف السلبية التي اتخذها اليهود من الرسل (المطاردة ومحاولة القتل،...) دفعت بهم إلى الانفتاح على أمم أخرى، وهو ما قاد إلى القول إنّ ملكوت السماوات ليس حكرا على بني إسرائيل.

3. الجنة والجحيم في النص القرآني⁴⁸

لم يصوّر "العهد القديم" مصائر البشر في عالم أخرويّ، بل كان مدار السرد في أسفاره العقاب الإلهي الدنيوي المسلط على المتمردين على سلطانه أو مضطهدي شعبه، ويعود ذلك إلى كون مقولة الآخرة لم تكن من ضمن المقولات التأسيسية في العقيدة اليهودية، بل إنّ جماعة إسرائيل لم تجمع على وجود عالم غيبي إلا في مرحلة متأخرة. رغم أنّ كثيرا من الدراسات ما انفكت تؤكد أنّ حضارات الشرق القديم، لاسيما الحضارة المصرية قد وعت بوجود عالم غيبي، بيد أنّ هذا العالم الغيبي⁴⁹ ظل عالما ضيقا ضيق اللحد لا يكاد يتجاوزها.

في حين تميّز الخطاب القرآني بتصويره لمصائر البشر في عالم غيبي، صنّف فيه الناس إلى أصحاب النعيم وأصحاب الجحيم، وقد ركّز النص القرآني في مواطن كثيرة على خصائص الفضاء الأخروي.

وفي هذا المبحث، نقدّم قراءة موجزة للتصور القرآني للجنة والجحيم، وفيه نحدّد العلاقة القائمة بين الفضاء الدنيوي والفضاء الأخروي، ونبيّن تأثيرهما في جملة الأحداث المتخيّلة (عالم الآخرة).

أشكال حضور الجنة ودلالاتها في النص القرآني

إنّ المتأمل في "القرآن" يتبيّن له الحضور المكثّف للجنة التي ذُكرت أكثر من مئة وأربعين مرة، وقد توزّعت المواضع القرآنية المتعلقة بالجنة على النحو الآتي:

أولاً: في صيغة المفرد أكثر من سبعين مرّة.

ثانياً: في صيغة المثني سبع مرّات.

ثالثاً: في صيغة الجمع ما يقارب الثمانين مرّة.

48- البعث والجزاء هو الموضوع الرئيس للمرحلة الثانية من خطاب القرآن المكي، وذلك بعد الحديث عن التوحيد (النبوة، الربوبية، والألوهية) الجابري (محمد عابد): فهم القرآن التفسير الواضح حسب ترتيب النزول القسم الأول، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، بيروت لبنان، 2008، ص 140

49- راجع تصوّر المصريين للحياة بعد الموت وحياة الإنسان في العالم الآخر، ص 46 وص 47 من بارندر (جفري): المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، مراجعة عبد الغفار مكاوي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والآداب، الكويت 1993

والملاحظ أنّ جميع هذه المواضع قد وردت معرفة، إمّا بأداة التّعريف (الألف واللام)،⁵⁰ وإمّا بالإضافة "جنّات عدن" و"جنّات الفردوس" و"جنّات النّعيم" و"جنّتي".⁵¹ وذلك على النحو الآتي:

نوع المضاف إليه	المضاف إليه اسم	المضاف إليه ضمير
عدد المرّات	88 مرة	5 مرّات
المجموع	93 مرة	

جدول بالمواضع القرآنية التي ورد فيها اسم الجنة معرّفاً بالإضافة.

وما يلفت الانتباه في المركبات الاسمية بالإضافة أنّ المضاف فيها؛ أي "الجنة" قد اتخذ في تلك المواضع شكلين، ورد في الأول مفرداً، مثل "جنّة الخلد"⁵² و"جنّة المأوى"⁵³ و"جنّة النّعيم".⁵⁴ أمّا في الثاني، فكان جمعا - أغلب المواضع القرآنية - "جنّات"، مثل "جنّات النّعيم"⁵⁵ و"جنّات عدن"⁵⁶ و"جنّات الفردوس".⁵⁷

إنّ المركبات الاسمية بالإضافة، يكون فيها المضاف إليه ضرباً من ضروب التّدقيق في وصف الجنة. وهو أمر من شأنه أن يوحي للقارئ أو المستمع بوجود أصناف عديدة من الجنان، فثمة جنان الفردوس وثمة جنان عدن وثمة جنان النّعيم.

والجدير بالملاحظة في هذا الإطار عدم استخدام النّصّ القرآنيّ "جنّات" مضافاً في تركيب اسميّ يكون الخلد فيه مضافاً إليه، إذ لا نعثر في "القرآن" على التّركيب الآتي: "جنّات الخلد".

وهو أمر يفتح أبواب التّأويل على مصراعيها، إذ لا نستبعد أنّ تكون المسألة عائدة إلى كون "الخلد" صفة قارة وقاسما مشتركا بين هذه الضروب من الجنان؛ فالخلد صفة تتعلّق بالزّمان أكثر من تعلّقها بالفضاء، وعليه جاز لنا عدم اعتبار الخلد سمة مميزة لصنف دون آخر من الجنان، إذ تبدو أكثر الأسماء التي أطلقت على الجنة متعلّقة بصفاتها، فهي "المأوى"⁵⁸ وهي المقام الأمين⁵⁹ والعالِي.⁶⁰ بيد أنّنا نجد في بعض الأحاديث النبوية

50- ورد اسم الجنة معرفة بالألف واللام 54 مرة.

51- سورة الفجر 30/89

52- سورة الفرقان 15/25

53- سورة النجم 15/53

54- سورة الشعراء 85/26

55- سورة لقمان 8/31

56- سورة فاطر 33/35

57- سورة الكهف 107/18

58- سورة النّازعات 41/79

59- سورة النّخان 12/44

60- سورة الحاقة 22/69 وسورة الغاشية 10/88

إشارات إلى أنّ في تعدد الأسماء اختلافا في درجات الجنان، من ذلك ما رواه الرّاعب الأصفهاني في "مفردات ألفاظ القرآن" "قال ابن عباس رضي الله عنه إنما قال: "جنات"، وذلك في قوله تعالى: كانت لهم جنات الفردوس نزلا(سورة الكهف 107/18) بلفظ الجمع لكون الجنان سبعا: جنة الفردوس، وعدن، وجنة النعيم، ودار الخلد، وجنة المأوى، ودار السلام، وعليين".⁶¹

والطّريف في الأسماء المتعددة التي اعتمدها "القرآن" في الإشارة إلى الجنّة، أنّها تحيلنا على ثلاث دلالات مختلفة، وهي:

- الدلالة الأولى: كانت الجنّة فيها فضاء أرضي⁶² يمتاز بكثافة الثّمار، مثل النّخيل والأعناب.⁶³
- الدّلالة الثّانية: تتعلّق بالفضاء الذي عاش فيه آدم قبل الهبوط - إن صح أنّها جنّة سماوية.⁶⁴
- الدّلالة الثّالثة: هي الأكثر حضورا وتتعلّق بالفضاء الذي سوف يخلد فيه المؤمنون بعد انقطاع صلّتهم بعالم الأرض.⁶⁵

ويمكن لنا أن نتناول خصائص "الجنّة القرآنية" ومسائلها بالنّظر في محورين رئيسين ركّز عليهما النّص القرآني، وهما: مكوّنات الجنّة وصفات أهلها.

مكوّنات الجنّة

وصف "القرآن" الجنّة وصفا دقيقا مخاطبا جملة من الحواس،⁶⁶ وقد شملت تلك الآيات القرآنية العديد من مكوّنات الجنّة، وهي مكوّنات دالة على نعيم أهلها،⁶⁷ إذ تمّ التّركيز على ما يصيبه أهل الجنّة من ملذّات تأتي على جميع الحواس تقريبا - لا سيما حاسة الدّوق (الشّراب والعسل...) وحاسة البصر(النّظر إلى الحور...)،

61- الأصفهاني(أبو القاسم الرّاعب) (ت 396 هـ):المفردات في غريب القرآن الكريم، دار قهرمان للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول تركيا، 1986، ج1، ص 284

62- Thiollier(Marguerite-Marie):Dictionnaire des religions, Larousse, Paris, 1985, p 195

63- سورة الأنعام 99/6 وسورة الإسراء 91/17 وسورة الكهف 18/35-40

64- سورة البقرة 2/35

65- سورة التّغابن 9/64 وسورة البيّنة 98/6

66- سورة فاطر 33/35 وسورة الإنسان 13/76-21 وسورة الواقعة 56/20-25

67- راجع اختلاف مواقف الفلاسفة والمتكلّمين المسلمين من مسألة البعث والمعاد وكيفيته (الجسد/الروح) في الجابري (محمّد عابد): فهم القرآن، (سبق ذكره)، من ص 192 إلى ص 205

وحاسة السّمع (يسمعون،...)،⁶⁸ بالإضافة إلى توفر جميع الطّيّبات على اختلاف أنواعها وألوانها (مأكولات،...)، فهذا المعنى أصبحت الجنّة " وليمة لجميع الحواس".⁶⁹

الحوار العيون ولحم الطير والثياب الفاخرة والذهب والفضة....، ما حرّم وما منع منه الإنسان في دار الدنيا، أُتيح له التمتع به في الآخرة، الدنيا وفق هذا الموقف لحظة عابرة ولحظة امتحان عسير على الإنسان أن يحسن التصرف فيها كي يظفر بالحياة الدائمة.

وفي هذا السياق، يشدّ انتباهنا أنّ عناصر الإمتاع التي يصيبها الإنسان في الجنّة تظل قليلة الحضور في النصّ القرآني مقارنة بالحضور المكثّف لعنصر الماء، فللماء أهمية واضحة في عالم الآخرة بجنّته وناره، ذلك أنّ المواضع التي لا يُذكر فيها عنصر الماء في ثنايا وصف الجنّة نزر قليل، ولعلّ أصدق مثال على أهمية الماء بما هو عنصر الحياة الرئيس.

وفي هذا المجال صورّ "القرآن" حاجة أهل النّار إليه دون غيره من العناصر، ففي الآية الخمسين من سورة الأعراف نقرأ: "وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ".

لقد ركّز "القرآن" على المقابلة بين الجنّة وجهنّم،⁷⁰ فلئن كانت الجنّة فضاء للحياة الأبدية يتمتّع فيه المؤمنون بسائر أصناف الملذات والنعم- وأبرز تلك النعم "الماء"-، فإنّ جهنّم بناها قد مثلت فضاء سلبيًا يفقد فيه الإنسان جميع متع الحياة وملذاتها، زد على ذلك ما يجده أهل النّار من معاناة وعذاب، فما هم بأحياء ولا هم بأموال.⁷¹

وتبلغ المقارنة ذروتها عندما يعمد النصّ القرآني إلى بيان العناصر المشكّلة لكلّ من الفضاءين، فلئن كانت النّار أبرز مكونات جهنّم، فإنّ الماء أبرز مكونات الجنّة وأكثرها تواترا.

68- لاسيما حاسة الذّوق (الشّراب والعسل...)، وحاسة البصر(النّظر إلى الحور...)، وحاسة السّمع.

69- بوحدية (عبد الوهاب): الجنسانية في الإسلام، تعريب محمد علي مقلد، مراجعة عبد الوهاب بوحدية، دار سيراس، ط1، تونس، 2000، ص 106

70- حُمّلت الجنّة في القرآن دلالات جعلت منها نقبضا دلاليا للجحيم (سورة غافر 8-7/40) حينًا، ونقبضا دلاليا للسّعير حينًا آخر(سورة الشّورى 7/42)

71- سورة الشعراء 96-91/26

الماء - الأنهار

ذكر "القرآن" الماء في صيغتين تتمثل الأولى في اسم جنس "الماء". أما الثانية، فهي صيغة جمع القلة "الأنهار"، والملاحظ غلبة الصيغة الثانية على الأولى التي لم ترد إلا في موضعين، وهما: قوله تعالى في سورة محمد 15/47: "مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنهَارٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ". وقوله تعالى في سورة الواقعة 31/56 - الموضع الثاني:- "وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ".

والملاحظ أنّ الماء في الآية الأولى ورد تمييزاً للأنهار، وكأنّ العلاقة بينهما هي علاقة الجزء بالكلّ، فالكلّ/ أنهار أظهر وأبرز، إذ يرد الماء فيها في ثنايا تعدد المتع التي ينالها أهل الجنة، فالأنهار أصناف في هذه الآية، فهي من العسل المصفى ومن اللبن ومن الخمر ومن الماء.

لذلك، نعتقد أنّ ذكر اسم الجنس "الماء"⁷² اقتضاه تعدد ملذات الجنة وطيباتها، وتمييز بعضها من بعض. أما في الآية الثانية، فيرد ذكر الماء للدلالة على حالة قارة في مكوّن من مكوّنات الجنة؛ فالماء المسكوب، هو ماء "دائم الجريان"⁷³.

معنى ذلك أنّ ذكر الماء في هذه الآية، لم تكن الغاية منه إبراز الماء بوصفه قيمة أساسية لحياة أهل الجنة، بقدر ما نهض وصف الماء بالدلالة على ديمومة النعمة، وكأنّنا بالآية- وهي مكيّة- ترغّب في عالم الجنة بما يحمله من صفات تقوم نقيضاً للموجود من شحّ للماء.

على أنّ ذكر الماء في الموضعين اقترن بجملة من الصّفات الإيجابية، وكذا الأمر بالنسبة إلى مفردة "أنهار"⁷⁴. فالماء دال في النّصّ القرآني على دلالات عديدة، نذكر منها: الخلق وبعث الحياة...، بل إنّ ظواهر طبيعية كثيرة في عرف البشر كوارث يتسبب فيها الماء،⁷⁵ تصبح في التّصور القرآني ظواهر إيجابية، من ذلك أنّ الطوفان قد غدا فعلاً منيراً، إذ عدّ خلقاً جديداً للبشرية وتطهيراً للأرض ممّا علق بها من برائين الفساد.⁷⁶

72- الماء في اللغة العربية من أسماء الجنس وهو دال على القلة والكثرة في الآن نفسه.

73- القاسمي(محمد جمال الدين): ريّ الغليل من محاسن التأويل، (سبق ذكره)، ص 535

74- صيغة الجمع "أنهار" هي صيغة من صيغ جمع القلة، والجدير بالذكر أنّ "القرآن" يستخدم عبارة "الأنهار" في وصف مكونات الجنة أكثر من استخدام عبارة "الماء"، ف"الماء" ذكر مرتين أما "الأنهار" فقد ذكرت أكثر من أربعين مرّة.

75- Durand(Gilbert):Les structures anthropologiques de l'imaginaire, Dunod, Bordas,Paris,1984, p 261

76- راجع أحداث الطوفان في سورة هود 44-35/11 وسورة نوح 28-25/71

ففي آيات عديدة من "القرآن" نجد إشارات كثيرة تبعث على الحيرة، من ذلك قوله تعالى في سورة النساء 4/ 122-25: "وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا".

الجنة في القرآن نقيض للنار من جهة،⁸⁵ وهي نقيض للأرض من جهة أخرى،⁸⁶ بيد أن علاقتها بهما تختلف اختلافاً بيناً، فلئن كانت النار عذاباً وشقاءً، فإنَّ الأرض فضاء المعاناة والمكابدة التي يدرك فيها الإنسان معناه، فمتى نحت كيانه وأسس ذاته وحدد معناه ولج الجحيم أو الجنة.

كشف "القرآن" منذ بدايات الدعوة المحمدية عن تصور متكامل ومتناسق لعالم الآخرة،⁸⁷ فلقد عدت مقولة البعث والحساب وبعث الأموات من المقولات الأولى التي تناولها "القرآن" في إطار مجادلته لمشركي قريش،⁸⁸ فلم يكن الموت هاجساً باعثاً على القلق والحيرة شأن⁸⁹ "أساطير الشرق الأدنى"، ولم يكن الموت باباً للعدم والسكون على نحو ما صورته اليهودية الأولى، بل كان بداية لـ"الحياة الحقيقية".

حوّل "القرآن" الموت من حادث مريب إلى فعل مرغوب فيه، تنشده جماعة المؤمنين (الجهاد والتضحية في سبيل الله ونصرة رسوله).

لقد تبين لنا بعد الوقوف على عتبات الجنة في "القرآن"، أن معالجة الجنة ومسائلها في عزلة عن السياقات الحضارية والتاريخية التي نشأ فيها النص المقدس تحول دون إدراك كنهها، ذلك أن النص في حالة تشاكل مع واقع.

85- سورة الحشر 20/59 وسورة البقرة 81-82 وسورة المائدة 72/5 وسورة الأعراف 44/7 و50 وسورة الشعراء 26/89-91

86- تأمل المقابلة التي يقيمها القرآن بين الحياة الدنيا والآخرة في الأعراف 51/7: "الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْغَيْبَةُ الدُّنْيَا فَأَلْيَوْمَ نَسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ" ونفس التصور نجده في الحديث النبوي: "الدُّنْيَا سَجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ". مسلم النيسابوري (أبو الحسين بن الحجاج) (تـ261هـ/876م): صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، دار الرسالة، بيروت لبنان، (بت)، ص 573، الحديث رقم 7343. وما ذكره الغزالي (أبو حامد): المنقذ من الضلال، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت لبنان، 1973، ص67 "ولعل تلك الحياة هي الموت، إذ قال رسول الله: "الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا. فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة، فإذا مات الإنسان ظهرت له الأشياء على خلاف ما يُشاهدنا الآن".

87- Blachère(Régis):Le Coran, traduit de l'Arabe par Blachère, Paris, 1980, pp 12 -13

88- راجع قوله تعالى في سورة يس 78/36: "وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ".

89- بن سلامة (رجاء): الموت وطوقسه من خلال صحيح البخاري ومسلم، دار الجنوب، ط 1، 1997، ص86 "هذه التصورات الأخروية تحوّل وجهة نظر المسلم من الموت الحقيقي الذي يلحقه إلى عالم آخر بعده مليء بأحداث مثيرة يعقبها الجزاء أو العقاب[...]. أفكار مطمئنة أو واعدة أو متوعدة فإن نجاعة التصورات الأخروية تعود إلى كونها تملأ العدم الذي يتركه الموت وراءه فتبني فوقه عوالم أخرى تشد انتباه المسلم وتجعله في شغل عن حياته الدنيا وعن موته".

العقاب

إن تطرّق النص القرآني لمآل الإنسان في الآخرة، يعدّ امتداداً منطقيّاً لما قام به في دار الدنيا، وفي هذا المجال تنهض قصص الأنبياء بدور مهم في بناء مصير الإنسان؛ فكثيراً ما يتمّ الجمع بين أمرين، وهما تذكير الإنسان الكافر والمشارك فرداً كان أم جماعة بتكذيبه لهذا النبي أو ذاك من جهة، واعتبار إعراضه عن الدعوة النبوية سبباً في هلاكه من جهة ثانية.⁹⁰ على أننا نجد في مواطن أخرى إشارات واضحة إلى استهزاء الأقسام بالأنبياء المرسلين لإنذارهم.⁹¹

وفي هذا السياق، نشير إلى أنّ نبوة محمد قد تميّزت عن غيرها بالجمع بين إنذار القوم المشركين والإشارة إلى بعث العباد ومحاسبتهم، وذلك في قوله تعالى في الآية السابعة من سورة الشورى: "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ".

إنّ الجمع بين كفر القوم بالنبي ودخولهم جهنّم، قد تزامن في أكثر من موضع مع إبراز الأسباب الداعية إلى السخرية بالأنبياء، فإذا هو الغرور وحبّ الدنيا⁹² وملذّاتها وغواية الشيطان الذي "أضلّ منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون هذه جهنّم التي كنتم تُوعدون أصلوها اليوم بما كنتم تكفرون".⁹³

على أنّ ما يميّز النص القرآني في هذا السياق تركيزه على أمرين، الأول تناوله لمصير أهل الكتاب، إذ يقول تعالى في شأنهم: "وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ"⁹⁴ و"لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَنَحْنُ نَدْعُو تَحْتَهُ بِلِقَاءِ رَبِّنَا يَوْمَ الْحِسَابِ إِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ذَبَابٌ أَلِيمٌ"⁹⁵. أمّا الأمر الثاني فتناوله لمواقف الأقسام المدعوة للإيمان من البعث في سرده لأقوالهم: "وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ [.....] أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ هِيَ هَاتِ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ"⁹⁶.

90- سورة يونس 74/10

91- سورة الأعراف 43/7 و50 و51

92- سورة الهزلة ورتبها في المصحف العثماني 104

93- سورة يس 64-62/36

94- سورة المائدة 65/5

95- سورة المائدة 73/5

96- سورة المؤمنون 38-33/23

إنّ من شأن هذين المجالين أن يحدّدا ماهية النبوة ومنزلة الإيمان، فلئن كان الإيمان بالغيب والبعث قاسما مشتركا بين الإسلام والمسيحية، فإنّ ما يميّز بينهما مفهوم التوحيد؛ فالمسيحية رأّت وفق الرواية القرآنية "الله" ثلاثيّة ثلاثيّة في حين أنكر المشركون البعث.

فإذا بالكفر حياذ عن التوحيد القويم وضلالة ما بعدها ضلالة، أمّا الشرك، فنفي للبعث وما يحتويه من عقاب وثواب، مما يفقد النبوة قيمتها الدلالية بما تتضمنه من دعوات لتقوى الله وطلب رضوانه والظفر بالجنة.

قام النص القرآني يدفع الشرك والكفر ويؤكد اشتراك الأنبياء في مضمون دعواتهم، فإذا هم يدعون إلى توحيد الله والإيمان به وإقرار البعث ويوم الحساب.

وفي هذا المجال لا يعدو الاختلاف بينهم أن يكون اختلافا في الزمن والفضاء والمرسل والمرسل إليه، وبذلك نكون إزاء نبوة واحدة جوهرها الإيمان بالله الواحد، ويكون الحدث المتخيّل حجة النبي في إقناعه لقومه، سواء كان ذلك الحدث المتخيّل محسوسا في عوالم المرسل إليهم أم كان غيبيا مرتقبا.

وفي هذا المجال، نشير إلى أنّ "القرآن" قد وظّف متخيّل أحداث يوم الحساب، كي يمنح الدعوة المحمّدية قسطا من الإقناع، فإذا بالنص القرآني يصوّر الجحيم والجنة ترهيبا وترغيبا كي يدفع بالمشركين إلى اتباع محمّد. زد على ذلك ما ألقيناه في ثنائية الجنة والجحيم من دحض لأطروحات أهل الكتاب ومعتقداتهم.

تلك بعض مظاهر تواشج النص المقدس الإسلامي مع الواقع الذي نشأ فيه، بل إنّ علاقة النص الديني بالتاريخ تتجاوز النّظر إلى صلة محمد بالسابق من الأنبياء لتطول منزلة البعث والحساب.

بيد أنّ النصّ القرآني لم يكتف بإبراز صلة الماء بالسماء، إذ لم يقتصر ذكر هذا العنصر-الماء- على وصف الجنة، بل ألقيناه مذكورا في وصف عذاب أهل جهنّم.⁹⁷

فسقياهم "ماء صديد" و"ماء حميم"، وفي التركيبيين جمع بين عناصر متنافرة دلاليا؛ ففي الأول جمع بين "الماء" و"الصديد"، وهو جمع غريب، ذلك أنّ الماء رمز للحياة،⁹⁸ فالماء أصل كلّ مخلوق دابة كان أم بشرا.⁹⁹ أمّا الصديد، فهو: "مَا يَسِيلُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ مِنْ الدَّمِّ وَالْقَيْحِ".¹⁰⁰

97- سورة إبراهيم 14/ 15-17، سورة محمّد 47/15، سورة الكهف 18/29.

98- سورة الأنبياء 30/30

99- سورة البقرة 2/164 وسورة النور 24/45 وسورة السجدة 32/8 وسورة الفرقان 25/54 وسورة الطارق 86/6. وفي الإطار نفسه نشير إلى أمرين: الأول أنّ لفظ "الماء" قد وُظف في النصّ القرآني بطريقتين: الأولى كان فيها الماء على جهة الحقيقة. أمّا الثانية فكان فيها الماء تعبيرا مجازيا على خلق الإنسان. أمّا الأمر الثاني فيتعلّق ببعض الباحثين المعاصرين - من أصحاب المنزع الباطني أمثال "اسمندر(عدنان) في: التّقمص والمسوخية في القرآن،

السماء والأرض، الجنة والجحيم... ثنائيات متنافرة في الظاهر متصلة اتصال السبب بالنتيجة في جوهرها، عالم المرئي الموجود وعالم الغيب الخفي الثاني امتداد للأول وترجمانه؛ ففي الأرض قوم يكذبون وقوم يطيعون ويصدقون، المكذبون يعذبون ويشردون بنار أو طوفان، وفي الآخرة يخلدون في العذاب ويحرقون. أما أصحاب الجنة، فهم الممتحنون في الأرض الصابرون في البأساء المؤمنون الصادقون، وهم في الآخرة الفائزون بجنات النعيم.

الآن في عالم الأرض ترى أيها الإنسان الغيب تبصره ماضيا ولّى، فإذا بالإيمان لحظة عتق من النار من كفر مهلك، الإيمان مدار الفعل والحدث، وبالعامل به يكون الإنسان إنسانا.

في هذا الأفق رسم النص المقدس بالحدث المُتخيّل العالم الآتي، فكان المُتخيّل أشد فتنة من أي لحظة مضت خيال على خيال، متعة على متعة وعود على بدء، ما كان المُتخيّل فاتحته (قصة الخلق) كان خاتمته (الجنة/ جهنم).

وجود الإنسان منذ خلقه إلى موته فبعثه عالم متخيّل لا يعيشه الإنسان بعقله وضميره ووجدانه فحسب، وإنما يعيشه أيضا- وبالأساس- بأماله وطموحاته، المُتخيّل الغائب يرسم الحاضر، والمُتخيّل المرجو يرسم المُتخيّل المعيش.

خاتمة

جمعت النصوص المقدسة - لا سيما القرآن - بين نشأة الإنسان وما ينتظره بعد الموت، قائلة ببعث الأموات في عالم غيبي، تتم فيه محاسبة البشر وتصنيفهم إلى جماعات، بعضهم في الجحيم يُحشر فيشقى، وبعضهم يفوز بالجنة فينعم بملذاتها.

وفي هذا الشأن، نلاحظ أنّ النص الإنجيلي والنص القرآني - على وجه الخصوص- قد تفرّدا بتصويرهما لعوالم الغيب، فإذا بالعقاب والثواب يتجاوزان العالم الأرضي، ليطولا عالما غيبيا محتجا، سمته الخلود والأبدية، فإذا بالعقاب والثواب أمران في غاية الجدة والطرافة يحفلان بالحدث المُتخيّل، فإذا به العنصر الرئيس المكوّن لهما.

وفي هذا المجال، يلفت انتباه الدارس اختلاف النصين في الطرح، فلئن عدت الأناجيل والرسائل الجنة عودة إلى ملكوت الله الفردوس المفقود، فإنّ "القرآن" لم ير في الجنة فردوسا مفقودا أو جنة ضيّعها الإنسان ونجح في استعادتها بعد أن محا خطاياها، بل عدّها الجزاء شأنها في ذلك شأن الجحيم. ولا يفوتنا في هذا

المضمار الإشارة إلى أنّ النص القرآني قد تميّز عن الأناجيل بإقامته لمقابلة بين عالمي الجنة والجحيم وتوظيفه جملة من الحواس ترغيبا وترهيبا.

إنّ الحديث عن زمن أخروي تقع أحداثه في عالم غيبي من خصائص "الأناجيل" - لا سيما رسل الرسل - و"القرآن" اللذين سعيا إلى تصوير مآل أهل الجنة وأهل الجحيم تصويرا دقيقا، جاعلين من الجنة وجهنم فضاءين مفارقين لما في عالم الأعيان.

قرن "القرآن" بين دعوة الأنبياء في الدار الدنيا ومصير الإنسان في الآخرة، فإذا بالإنسان ينحت مصيره بمحض إرادته، في حين عمدت الأناجيل إلى جعل المسيح والإيمان بألوهيته مدار فوز الإنسان بالملكوت، في هذا المستوى نتبين أكثر مجالات الاختلاف بين النصين المقدسين؛ فالأناجيل عندما تتخذ من الإيمان بالمسيح المسلك الأول والأخير لنيل الملكوت السماوي، تكون قد ألغت بشكل أو بآخر مسؤولية الإنسان. فالمحبة الإلهية وما يمثله فعل الفداء من كفارة تطول الخطاة يجعل (الفداء) من الإنسانية جمعاء مجالا للغفران بصرف النظر عن طبيعة الذات الإنسانية، وهو موقف تجاوزه "القرآن" بأن ردّ للإنسان المشيئة والإرادة، فلم ينسب إلى الأنبياء (عيسى، ...) أفعالا أو أدوارا، إذ يقتصر دورهم على إيضاح الصراط المستقيم للعباد، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وبالإيمان والكفر تحدّد منازل العباد. ذلك أنّه "لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ" ¹⁰⁵ وكلّ واحد "يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا" ¹⁰⁶ وفي ما يتعلق بهذا اليوم فإنّ النص القرآني، قد قدّم مشاهد مصوّرة بدقة مصائر أهل الدارين استقاه من الواقع (حياة العرب في الجاهلية) قصد الترغيب والترهيب.....

إنّ النصوص المقدّسة في معالجتها لمسألة الثواب والعقاب في الآخرة، نسجت صورة واحدة لجهنم (العذاب، ...) وللجنة (النعيم، ...)، ولكنّها اختلفت في دلالات الصورتين من جهة، وفي روافد تلك الصور وبواعثها، فلئن كانت الجنة والجحيم في العهد القديم والعهد الجديد موقفا من الواقع يقوم بالأساس على مبدأ التعويض فتحا لأبواب الأمل؛ ففي النصوص التوراتية والإنجيلية ضاقت الأرض بالعباد، فطلبوا الفردوس والملكوت في عالم الغيب تعويضا لما وجده المؤمنون من عذابات ومتاعب، فإنّهما في النص القرآني كانتا شكلا من أشكال مواجهة الواقع بصرف عيون الناس عن الأرض (حب المال، ... = قيم الجاهلية) إلى عالم غيبي خالد لا تزول فيه الخيرات والنعيم. وبهذا المعنى كانت الجنة وجهنم في النص القرآني إعادة بناء للموجود من خلال إرساء قيم جديدة (البذل، العطاء، الصدقة، ...).

105- سورة الأنعام 164/6

106- سورة طه 100/20

اكتملت النبوة يوم انتصر محمد على أعداء الله ورفع راية التوحيد، فكانت الجنة والجحيم خير أداة للوحدّة. فلم تكن شكلا من أشكال التعويض، بل كانت نتيجة حتمية لوجود الإنسان في الأرض.

فإذا بعلاقة الأرض عالم الأعيان بعالم الغيب جنة وجحيم قائمة على الترابط المنطقي بين الأسباب والنتائج. ما يزرعه الإنسان يحصده إن آمن نجا وظفر بما اشتهى، وإذا ما كذب وتولى، فإنّ الجحيم هي المأوى.

وما صدق وأمن هؤلاء وما كذب أولئك إلاّ بالمُتخيل، بالمُتخيل نشأ الإيمان والكفر وبالمُتخيل كان الثواب والعقاب.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com